الكلمة الطيبة

الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(صعود الأقوال ورفع الأعمال)
من الصفحة ١٠ حتى الصفحة ٢٥

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناء على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم مؤلفات الإمام
ـالمؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ «لا إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ»
هِيَ فِي القلبِ كالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ فِي الأَرْضِ
وَثَمرَاتُها الأَقْوالُ الطَّيِّبَةُ وَالأَعْمالُ الصَّالِحَةُ

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

وجوه الكلام حول هذه الآية الكريمة:

الأول: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ فيه التنبيه إلى عَظمة هذا المَثَل وروعتِه، وأنه المثل الأفضل والأكمل، والأدلُّ على المراد الذي سِيقَ له، وذلك مما يُوجب على العاقل أن يُلقِيَ اهتمامه إليه، فيعقلَ ما فيه ويتذكره، ويفكِّر في مراميه ويتدبر، فإنَّ في ضرب الأمثال إبرازاً للمعاني بصور المباني، وتصويراً للمعقولات والمعلومات بصور المشهودات والمرئيات، وبذلك تتجلى حقائق المعاني المخبر عنها، والمقصود بيانها، حتى يصير الخبر عنها كالعيان، ولذا قال سبحانه في آخر الآية الكريمة: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هذه الكلمة الطيبة هي:

لا إله إلا الله ، كما جاءَ ذلك عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أَبي حاتم ، والبيهقي في (الأسماءِ والصفات) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: (هي شهادة أَن لا إله إلاَّ الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ بقول: لا إله إلاَّ الله ثابتة في قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول سبحانه: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماءِ).

وإنما وُصفتْ بأَنها طيبة لأَن مدلولَها وموضوعها والمخبَرَ بها عنه هو الله الواحد الأَحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أَحد ، المتصفُ بما لا يتناهَى من الكمالات ، المنزَّهُ عن العيوب والنقائص والآفات ، فهو المِلك القدُّوس ، وهو الله تعالى الطَّيبُ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يقبلُ إِلا طيباً» الحديث.

فهذه الكلمة هي طيبةٌ بذاتها ، مطيِّبة للقلب الذي اعتقدها ، ومطهِّرة له من نَجَسِ الشرك والكفر ، فهي كلمة طيبة ولا أَطيبَ منها ، ولا أَطهر ولا أَقوى منها ولا أَظهر ، ولا أَكمل منها ولا أَفضل ، ولا أَقدس منها ولا أَنفس ، إِنها: لا إِلٰهَ إِلا الله ، التي لا تتناهى معانيها.

قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فمهما علم العلماءُ من علوم لا إِلٰهَ إِلاَّ الله ، فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولما كانت لاَ إِله إِلاَّ الله عظيمةَ القدر ، كبيرةَ الشأْنِ ، كثيرة

الفضل ، لا تُعادَل ولا تُقابَل ، كانت أَوصافُها الواردةُ في الكتاب والسنة كثيرةً وكبيرة نذكر موجزاً منها :

١ ـ فهي الكلمة الطيبة ـ كما تقدم ـ .

٢ ـ وهي كلمة التقوى ، قال تعالى : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الآية .

روى الترمذي ، وعبد الله بن أَحمد في الزوائد ، والبيهقي عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال : «لا إِله إِلاَّ الله» .

٣ ـ وهي كلمة الله العليا ، قال تعالى : ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ .

روى ابن المنذر وابن أَبي حاتم ، والبيهقي في (الأسماءِ والصفات) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ قال : هي الشرك ، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ قال : هي لا إِله إِلاَّ الله .

فلا إِله إِلاَّ الله هي العليا ولا أَعلى منها ولا أَشرف منها ولا أَعز منها ، فلها الرفعة والعزة والصدارة على ما سواها .

روى الإِمام البغويُّ من طريق إِسحاق بن بِشْر ، أَخبرني مقاتل وابن جُريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (إن صدر اللوح المحفوظ لا إِله إِلاَّ الله وحده ، دينه الإِسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصَدَّق بوعده واتَّبع رسله ؛ أَدخله الله تعالى الجنة) .

٤ ـ وهي الكلمة الباقية ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فقد نقل الحافظ ابن كثير عن كثير من السلف أَنها: لا إِلٰه إِلاَّ الله ، المفهومة من الآيات المتقدمة عليها.

٥ ـ وهي كلمة التوحيد ، روى مسلم ، عن طارق الأَشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من قال لا إِلٰه إِلاَّ الله ، وَكَفَرَ بما يُعبد مِن دون الله: حَرُم مالُه ودمُه ، وحسابُه على الله تعالى».

وفي رواية: «مَنْ وَحَّدَ الله» وذكر مثله[1].

٦ ـ هي كلمة الإِخلاص ، روىٰ أَبُو داود ، وابن حبان في (صحيحه) عن عبد الرحمن بن أَبْزَى ، عن أَبيه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول إِذا أَصبح: «أَصبحنا على فِطْرة الإِسلام ، وكلمة الإِخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى ملة إِبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[2].

قال ابن الأَثير: الفِطْرة هي ابتداءُ الخِلْقة ، وهي إِشارة إِلى كلمة التوحيد حين أَخذ الله تعالى العهدَ بها على ذرية آدم ، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ وقيل: الفطرة ها هنا السنة.. ، قال: وكلمة الإِخلاص: قول: لا إِلٰه إِلا الله. ا هـ.

---

(١) كما في (جامع الأصول).
(٢) انظر (جامع الأصول).

٧ ـ هي كلمة كريمة على الله تعالى ، روى البزار في (مسنده) عن عياض الأَنصاري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ لا إِلٰه إِلاَّ الله كلمة على الله كريمة ، لها عند الله مكان ، وهي كلمة مَنْ قالها صادقاً أَدخله الله بها الجنة ، ومن قالها كاذباً حَقَنَتْ ماله ودمه ، ولقي الله غداً فحاسبه» أَورده الحافظ ابن رجب في شرحه.

٨ ـ هي كلمة عظيمة كريمة على الله تعالى ، روىٰ ابن النجار ، عن أَنس رضي الله عنه مرفوعاً: «لا إِلٰه إِلا الله كلمة عظيمة كريمة على الله تعالى ، مَنْ قالها مخلصاً استوجَبَ الجنة».

ومِنْ كرامتها على الله تعالى أَنَّ من جاءَ بها صادقاً أَكرمه الله تعالى.

وهي كلمة عظيمة لا تُقاومُها السماوات ولا الأَرضون.

روى النسائي ، وابن حبان في (صحيحه) عن أَبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّه قال: «قال موسى صلى الله عليه وسلم: يا ربِّ عَلِّمْني شَيئاً أَذكُرُك به وأَدعوك به.

قال: قل: لا إِلٰه إِلا الله.

قال: يا ربِّ كُلُّ عبادك يقول هذا.

قال: قل: لا إِلٰه إلا الله.

قال موسى: إِنَّما أُريد شيئاً تَخصُّني به.

فقال ـ سبحانه ـ: يا موسى لو أَن السَّماواتِ السبعَ ، والأَرضينَ

السبعَ في كِفَّة ، ولا إِلٰه إِلا الله في كِفَّة ، مالت بهن لا إِلٰه إِلاَّ الله» أي: لعظمتها وقوتها وهيبتها[1].

والآن نرجع إلى الآية الكريمة:

الثالث: قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ والمراد بالشجرة الطيبة هنا النخلة، كما جاءَ في الحديث الصحيح، عن أَنس رضي الله عنه قال: أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقِناع من بُسْر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَثَلَ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ـ حتى بلغ ـ ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، فقال: هي النخلة.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ـ حتى بلغ ـ: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ فقال: هي الحنظلة»[2]. والقِناع: الطَّبَق الذي يؤكل عليه.

الرابع: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أَصلها ثابت: قول لا إِلٰه إِلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السماء، يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماءِ.

والمعنى: أَنَّ لا إِلٰه إِلاَّ الله هي ثابتة راسخة في القلب، وفروعها التي تتفرع عنها من الكلم الطيب والعمل الصالح صاعدة

---

(١) وتفصيل الكلام على بقية أسماء هذه الكلمة الطيبة وأوصافها تجده في كتابنا (شهادة لا إِلٰه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

(٢) رواه الترمذي والنسائي، والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، كما في (الدر المنثور).

إلى السماءِ ، وكما أَنَّ شجرة النخلة دائمة النفع متواصلة الخير ، لا ينقطع خيرها وثمرها طول السنة ، ما بين بُسْرٍ ورُطَب وتمر جاف يابس؛ كذلك شجرة الإيمان في القلب وهي: لا إِلَه إِلا الله ، لا ينقطع خيرها ولا يفنى بِرُّها ، فهي لا تزال تؤتي ثمراتها كل حين في الليل والنهار ، والغدوة والعشيِّ ، كلاماً طيباً ، وأَعمالاً صالحة ، تُرفع إِلى رب العالمين.

وفي هذا المثل العظيم الذي ضربه الله تعالى لعباده تنبيهات إِلَهية إِلى أُمور هامة يجب على المؤمن أَن ينتبه لها ، وَيَرعاها حقَّها ، ليكمل له الإِيمان ، ويحفظه من النقصان.

الأمر الأول: أَن الشجرة لا تبقىٰ فيها حياة النمو إلا بمادة تَسقيها وتُنَمِّيها ، فإِذا انقطع عنها السقي جَفتْ ويبست ، وهكذا شجرة الإِيمان في القلب: إِنْ لم يتعاهدْها صاحبُها بالسقيا ، أَوشك أَن تيبس ، وإِذا تمكن فيها اليبس طويلاً ماتت والعياذ بالله تعالى.

فالماءُ الذي يُسقَىٰ به شجر الأَرض ليحيا وينمو هو ماءُ المطر والنهر والينابيع ، فيه غيثه وقوَّته ونموُّه ، وأَما الغيث الذي يحيي الله تعالى به شجرةَ الإِيمان في القلب وينمِّيها ويقوِّيها فهو ماءُ الوحي الإِلٰهيِّ ، النازل من عند الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الوحي القرآني ، والوحي النبويِّ: كتابُ الله تعالى وسنةُ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ

ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

فقد ضرب الله تعالى في هذه الآية مثلين:

الأول: المثل المائي، شبَّه فيه الوحي الذي أَنزله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لإحياءِ القلوب بالإيمان، وإحياءِ شجرة الإيمان، وتنميتها وتقويتها في القلوب، شَبَّه ذلك بالماءِ الذي أَنزله من السماءِ لحياة الأَرض، وإحياءِ النباتِ من الزروع والأَشجارِ فيها، وشبَّه القلوب الحاملة له بالأَودية الحاملةِ للسيل.

فهناك قلبٌ كبير يَسَعُ إيماناً عظيماً وعلماً كثيراً، كالوادي الكبير الذي يسع الماءَ الكثير، وهناك قلب صغير كالوادي الصغير يسعُ القليل من ذلك، فَحَملتِ القلوبُ من الإيمان والعلم بقدَرها، كما سالتِ الأَودية بقدَرها.

وكما أَنَّ السيل إذا مرَّ بالوادي يحمِل غُثاءً وزَبَداً، ويطفو ذلك على وجه الماءِ، ولكن تحته الماءُ الفُرات الذي به حياة الأَرض والنبات، فيقذِف السيلُ ذلك الغُثاءَ إلى الخارج حتى لا يبقىٰ منه شيءٌ، ويبقى الماءُ الصافي، فيحيي به الله تعالى العبادَ والبلاد، والشجر والدواب، فكذلك الإيمان والعلم الذي أَنزله الله تعالى في القلوب، فإنها احتملته فأَثار ما فيها من غثاءِ الشهوات الضارة، وزَبَد الشبهات الضالة، فيطفو ذلك، ولكنْ سرعان ما يزول ويذهب جُفاءً، ويطرحه القلب، ويبقى الإيمان الخالص، والعلم النافع في ذلك القلب.

الثاني: هو المثل الناري: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وهو الخَبَث الذي يَخرج عند سبك الذهب والفضة،

والنحاس والحديد ، فتخرجه النار وتفصله من الجوهر الذي يُنتفع به فيرمى ويطرح ، وكذلك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، فإن الإيمان إذا دخل القلب طرحها بعيدةً عنه ، ويبقى الإيمان الصادق والعلم النافع مستقراً متمكناً في أَرض القلوب ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً لما جاءَ به من الهُدى الرباني ، والعلم الإيماني ، واختلاف قبول القلوب لهما:

ففي (الصحيحين) عن أَبي موسى الأَشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ مَثَلَ ما بعثني الله تعالى به من الهُدَى والعلم كمثلِ غيثٍ أَصاب أَرضاً ، فكان منها طائفةٌ قبلتِ الماءَ: فأَنبتتِ الكلأَ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أَجادب أَمسكت الماءَ: فسقى الناسُ وزرعوا ، وَأصاب منها طائفة أُخرى إِنما هي قِيعانٌ لا تُمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأً: فذلك مَثَل مَنْ فَقُه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وَعَلَّم ، ومَثَل مَنْ لَمْ يَرفعْ بذلك رأْساً ، ولم يَقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به».

فبيَّن صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث الغيثَ الحقيقي الذي يُغيث الله تعالى به القلوب فتحيا ، وذلك هو الهدى والعلم اللذان جاءَ بهما صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا غيثَ تحيا به القلوب إِلا فيما جاءَ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإِن حاجةَ الناس إِليه أَشدُّ من حاجتهم إِلى غيث المطر.

كما بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أَقسام الناس بالنسبة لأَخذهم بما جاءَهم ، وقبولهم ذلك وأَنهم على ثلاثة أَقسام:

القسم الأَول: العالم العامل المعلِّم للناس ، وهؤلاءِ هم العلماءُ ورثة الأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ، قاموا بالدين وأَقاموه: علماً وعملاً ، ودَعَوْا إِلى الله تعالى على منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهم كالأَرض الطيبة: شربتِ الماءَ النازل من السماءِ وقبلته ؛ فانتفعت في نفسها ، وأَنبتت الكلأَ والعشب الكثير ؛ فنفعت الناس.

وهؤلاءِ هم الذين أَعطاهم الله تعالى قوةً في الحفظ والفهم في وحي الله تعالى ، المنقول عن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستنبطوا من ذلك الأَحكام الواسعة ، واستخرجوا من ذلك العلوم النافعة ، والحجج القاطعة ، فنفع الله تعالى بها العباد والبلاد ، كما قال أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وكرم الله تعالى وجهه لما سئل: هل خصَّكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيءٍ دون الناس؟.

فقال: (لا والذي فَلَقَ الحبة وبَرَأَ النَّسمة إِلا فهماً مُؤْتيه الله عبداً في كتابه).

فنصوص الكتاب والسنة بالنسبة لجميع الناس هم على حدٍّ سواءٍ فيها ، ولكن تختلف مراتبهم حسب اختلاف مراتبهم في الفهم ، وهذا فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاءُ.

القسم الثاني: العالم العامل الذي أعطاه الله تعالى قوة حفظ النصوص وضبطها ، وكان فهمه منها ليس في تلك المرتبة الأُولى في قوة الاستنباط واستخراج الأَحكام ، فانتفع بها على حسب ما أُعطي من الفهم ، ولكنه أَدَّاها لغيره وبلَّغها للناس ، فانتفعوا بها

واستخرجوا منها علوماً ، واستنبطوا من تلك النصوص التي بلَّغها لهم أَحكاماً ، كما أَشار إِلى ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «نضَّر الله امرءاً سَمِع منَّا شيئاً فبلَّغه كما سمعه ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أَوْعَى من سامع» رواه أبو داود والترمذي.

وفي رواية لأَحمد ، وابن ماجه ، والطبراني: «نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها وَوعاها وبلَّغها مَن لم يَسمعْها ، فربَّ حاملِ فقهٍ لا فِقْهَ له ، وربَّ حاملِ فقـهٍ إِلى مَنْ هو أَفْقهُ منه» الحديث[1].

وفي رواية لأَصحاب (السنن): «نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلَّغه غيره ، فربَّ حاملِ فقهٍ إِلى مَن هو أَفقهُ منه ، وربَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيه» الحديث[2].

فهذان القسمان من الناس هما أَسعد خلق الله تعالى بما جاءَ به سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإِنهم الذين قبلوه وشربوه ، وامتلأَت به قلوبهم وأَرواحهم ، وأَسماعهم وأَبصارهم وعقولهم ، ورفعوا به رأْساً ، ونالوا به عزَّ الدنيا والآخرة.

اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك يا ذا الفضل العظيم.

القسم الثالث: هم أَشقى الخلق ، الذين لم يقبلوا هُدى الله تعالى الذي بُعِث به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يرفعوا بذلك رأْساً ، فلا حِفْظَ ولا فَهمَ ، ولا عملَ بهَدْي الله

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

(٢) انظر (ترغيب) المنذري ، و(جامع الأصول).

تعالى ، ولا تمسكَ بشريعته ، فهم كالأَرضِ السَّبْخة أَو الملساءِ التي لا تَقبل الماءَ ولا تُمسكه لينتفع به الناس.

فحياة الشجرة الإيمانية في القلب إنما هي بماءِ الوحي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه جاءَ بالهدى الساطع والعلم النافع ، فإذا سُقِي القلبُ بهذا الماءِ نَمَتْ شجرة الإيمان وقويت ، وشَعَّبت شُعَباً ، وفرَّعته فروعاً ، وبذلك يصير قلب المؤمن كَرْماً ، كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تُسَمُّوا العنب الكرمَ ، إِنَّما الكرْمُ قلبُ المؤمن»[1].

وقد نَدَبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورغَّبنا في أن نسأَل الله تعالى أَنْ يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا :

فعن ابن مسعود رضي الله عنه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أَصاب أَحداً قَطُّ هَمٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللهم إِني عبدك ، وابنُ عبدِك ، وابنُ أَمَتِكَ ، وفي قبضتك ، ناصِيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حُكْمُك ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك ، أَسأَلك بكل اسم هو لك ، سميتَ به نفسك ، أَو أَنزلتَه في كتَابك ، أَوْ علَّمتَه أَحداً من خلقك ، أَو استأْثرتَ به في علم الغيب عندك: أَن تَجعلَ القرآنَ العظيم ربيعَ قلبي ، ونور صدري ـ وفي رواية: «بصري»ـ وجلاءَ حُزْني ، وذَهابَ همي وغمي ، إلا أَذهب الله عز وجل همَّه وأَبدله مكان حزنه فرحاً».

---

(١) رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الزبيدي: يقال: رجل كرم وامرأة كرم ونسوة كرم ، كله بفتح الراء وإسكانها بمعنى كريم ، وصف بالمصدر كعدل وضيف. ا هـ.

قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أَن نتعلم هذه الكلمات.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَجل، ينبغي لمن سمعهن أَن يتعلمهن».

قال المنذري: رواه أَحمد والبزار وأَبو يعلى، وابن حبان في (صحيحه) والحاكم.

فإِذا صار القرآنُ العظيمُ ربيعَ القلب: أَخصبَ وأَعشبَ، وأَثمر كَلِماً طيباً وعملاً صالحاً.

الأمر الثاني: الذي يشير إِليه ضَرْب مثلِ الكلمة الطيبة في القلب كمثل الشجرة في الأَرض، هو أَن الزروع والأَشجار قد يَجتمع حولها عُشب فيه دغل ونبات غريب عنها، ليس من جنسها، فإِنْ تعاهدها صاحبُها وَقَلع تلك النباتات الغريبة، والحشائش الضارة، وأَبعدها عنها، قويت الشجرة وتمَّ نباتها، واستوت على سوقها، وكان ذلك أَوفر لثمرتها وطيبها، وإِنْ ترك الحشائش والنباتات الضارة أَوشك أَن تتغلَّب على الشجرة فتحيطَ بها، وتتشبَّكَ بأَغصانها فتُضعفَ من نموها، وتُفسدَ ثمراتها، وتُلحق بها أَضراراً كبيرة، وذلك نتيجة إِهمال صاحبها.

وكذلك شجرةُ الإِيمان في القلب إِذا لم يتعهدْها صاحبها فيحافظ عليها منَ الأَهواءِ الضالة، والشهوات الضارةِ، فإِن شجرة الإِيمان تضعف وتنقص ثمراتها، وربمَا يَبِسَتْ على تمادي الزمان.

وقد نبَّه الله تعالى عباده إِلى خطر هذين الداءَين: داءِ الأَهواءِ الضالة التي تنشأُ عنها الشبهات الباطلة، وداءِ الشهوات الضارة المجاوزة حدودَ الشريعة، فقال سبحانه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ففي هذا تحذيرٌ لهذه الأُمة مما هلكتْ فيه الأُمم السابقة: الشهواتِ المفرطة الضارة التي استمتعوا بها ، ومخاضات الشبهاتِ والأَهواءِ التي خاضوها.

روى الإِمام أَحمد والبزار ، والطبراني في (الثلاثة) عن أَبي بَرْزةَ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنما أَخشى عليكم شهواتِ الغَيِّ من بطونكم وفروجكم ، ومُضِلَّاتِ الهوى».

الأمر الثالث: هو الذي يشير إِليه قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ففي هذا تنبيه إِلى أَن فروعَ شجرةِ الإِيمان في القلب وثمراتها هي على حسب ثبوت أَصلها في أَرض القلب ، ورسوخها وتمكُّنِها فيه ، فكلما ثبتَ أَصلُها ورَسَخ ؛ كلما عَلا فرعُها ونما ثمرها وكثر . فعلى المؤمن أَن يتعهد شجرة الإِيمان فيما يمكِّنها ويقوِّيها دائماً ، وذلك بالمواظبة على أَوامر الله تعالى ، والبعد عن ما نهى عنه ، والإِكثار من ذكره سبحانه.

روى الإِمام أَحمد بإِسناد حسن ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جَدِّدوا إِيمانكم».

قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إِيماننا؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَكْثِروا من قول: لا إِلٰه إِلا الله»[1].

الأمر الرابع: وهو الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وهذا فيه البشارة وفيه النِّذارة.

فيه البشارة لمن كَثُرت أَقواله الطيبة وأَعماله الصالحة، وتوالت مستمرة، يؤدي كل وقت حقَّه الذي يطالبه به شرع الله تعالى في الليل وفي النهار، فكلامه الطيب يصعد إلى الله تعالى، وأَعماله الصالحة تُرفع إِلى الله تعالى دائماً؛ وبذلك يُذْكَر في الملإِ الأَعلى ويُثني الله تعالى عليه، ويُباهي به الملائكة الكرام، وينال الرضوان من الرحمن، وتسجل تلك الكلمات الطيبة والأَعمال الصالحة في كتاب الأَبرار، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، فالهناءَة والبشارة العظمىٰ والفرحة الكبرىٰ لمن فاز بذلك.

والنِّذارة والخيبة لمن ضَعُفَتْ شجرة إيمانه، فضعفتْ ثمراتُها، فليس له من الكلم الطيب والعمل الصالح إلا النزر القليل، لأَنَّه آثر الدنيا على الآخرة، وصَرَف نشاطَه الأَكبر وقوةَ عزائمه وهممِه في جمع حُطام الدنيا الفانية، وشَغَل عقله ومداركه في الإِكثار من أَموال الدنيا والمكاثرة بها، وأَغفل جانبَ الدين والآخرة، ولم يُقدِّم لتلك الحياة الأَبدية ما يُسعده فيها من أَقوال طيبة وأَعمال صالحة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ

---

(١) ورواه الطبراني كما في (ترغيب) المنذري.

﴿ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ الآيات الكريمة.

يتمنىٰ في ذلك اليوم أن يكون قَدَّم لحياته في تلك الدار الآخرة الباقية الأبدية، كما قدَّم في الدار الدنيا المؤقتة الفانية.

فاعتبِرْ أيها العاقل، وأَعِدَّ العُدَّة، وتزوَّدْ لدار البقاءِ، قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

اللهم اجعلنا منهم.

وفي هذا المثل الوارد في الآية الكريمة من المعاني والمفاهيم والتنبيهات، ما يعجِز الإنسان عن استقصائه، فثمراتُ شجرةِ الإيمان في القلب هي الكلم الطيب والعمل الصالح، وهما كريمان على الله تعالى، ولهما كرامتهما عنده في الملإِ الأعلى، ولذلك يُرفعان إلى الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ الآية.

وإليك بيانَ بعض معاني هذه الآية الكريمة، مستعيناً بالله تعالى، وراجياً منه السداد في القول، والإخلاص في النية، والتوفيق للصواب الذي يحبه سبحانه ويرضاه.

* * *